

تشكيل جيش البخاري ومسألة الحراطيين من خلال مخطوط "جني الأزهار ونور الأبهار..."

د. محمد المهنائي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة

لقد اشتمل كتاب "جني الأزهار.." على سبع وثائق، حاولت أن تحيط بكل القضايا التي كانت لها علاقة بمسألة جمع العبيد الحراطيين وتجنيدهم ضمن جيش البخاري. وقد رتبها جامعا المجهول على نحو عجيب...

الفصل الأخير في معارضة علماء فاس لسياسة تملك الحراطيين

اشتهر المولى إسماعيل في تاريخ المغرب عامة، وتاريخ الدولة العلوية على الخصوص، بسياسته العسكرية، إذ حاول أن يحدث في هذا المجال نقلة نوعية تمكن الدولة من جهاز عسكري مستقل عن الخريطة القبلية للمغرب، فقام بتشكيل جيش أسود يضم العبيد والعناصر السمراء التي كانت تسكن الواحات الجنوبية منذ أقدم العصور، وتعرف باسم الحراطيين⁽³²²⁾ وقد أعطت هذه السياسة أكلها على المستوى العسكري والسياسي، حيث مكنت الجهاز المخزني الإسماعيلي من فرض سلطته وهيئته في كل الجهات التي كانت تشكل التراب المغربي، وذلك خلال ظرفية داخلية جد حرجية، كما ساعدت على مواجهة الخطر الخارجي وطرد النصاري من بعض الثغور المحتلة (المهدية، العرائش، طنجة) غير أن شهرة السياسة العسكرية الإسماعيلية لا تعود فقط للنجاحات التي حققتها، وإنما أيضا للمعارضة المتميزة التي شهدتها هذه السياسة، وخاصة في جانبها التنظيمي⁽³²³⁾

³²² حول أصل واسم هذه الفئة، أنظر: محمد المهنائي؛ التنظيم العسكري وعلاقته بالمجتمع في العصر الإسماعيلي الترقى الاجتماعي للحراطيين نموذجاً، منشورات مركز البحوث والدراسات العلوية، الربصاني، 1991.

³²³ - حول هذا الموضوع يمكن قراءة المقالات التالية: محمد المهنائي، الحسن اليوسي نموذج العالم الملتزم، جريدة العلم، أكتوبر، 1990. محمد المهنائي، الشورى في دولة الإسلام: العلماء والمولى إسماعيل ومسألة تملك الحراطيين، العلم الثقافي، عدد 965، مارس، 1990. محمد المهنائي، قصة مدينة تارودانت مع سيدي محمد العالم (جوانب من تاريخ المسكوت عنه بالمغرب في عصر المولى إسماعيل)، العلم الثقافي، عدد 786، غشت، 1992.

(فقد ناهضها المغاربة بمختلف شرائحهم، ولاسيما العلماء والحراطين. وبهذا كانت محاولة المولى إسماعيل الهادفة إلى إحداث نقلة نوعية في التنظيم العسكري وراء إحداث نقلة مماثلة في علاقة المجتمع بالتنظيم العسكري الذي تنهجه سلطته المركزية (324). لقد اعترض العلماء على الأسلوب الذي اتبع في تشكيل جيش البخاري، من حيث التجنيد الإجباري وتمليك المسلمين الأحرار، وقاموا بتمكين الحراطين من السند الشرعي في مطالبتهم بالاحتكام إلى التشريع الإسلامي....وبالمقابل أبانت هذه المسألة عن الأهمية البالغة التي كانت لعلماء فاس، إذ بحكم الظروف التي مر منها المغرب منذ موت المولى احمد المنصور (1603 م) إلى زمن المولى إسماعيل، أصبحت فاس عاصمة علمية حقيقية للمغرب قاطبة، وخاصة بعد تخريب المراكز العلمية المنافسة لها، مثل زاوية الدلاء، ومركز ايلنج⁽³²⁵⁾ ولهذا كان من المنطقي أن يتزعم علماء فاس هذه المعارضة.

لقد مرت معارضة علماء فاس لسياسة تمليك الحراطين من مراحل مختلفة، كان للتكتيك المخزني فيها الدور الحاسم⁽³²⁶⁾ وإذا كانت المراسلات بين المولى إسماعيل وشيوخ العلم بفاس في موضوع جيش البخاري تعود إلى سنة 1104 هـ/1692م وربما قبلها⁽³²⁷⁾ فإن أول مواجهة علنية كانت حسب محمد بن الطيب القادري عام 1109 هـ/1697 م، حيث "ورد على فاس كتاب من عند السلطان بتوبيخ العلماء والقاضي وألزمهم الموافقة على تمليك العبيد الذين في الديوان"⁽³²⁸⁾ ومنذ هذا التاريخ انكشفت المسألة ولم تعد طية المراسلات التي استمرت بين المولى إسماعيل وشيخ الجماعة بفاس العالم محمد بن عبد القادر الفاسي، إلى أن توفي هذا الأخير عام 1116 هـ/1704م⁽³²⁹⁾.

ومنذ عام 1110 هـ/1698 م، حاول المولى إسماعيل أن يدخل حراطين فاس ضمن ديوان العبيد، ولكنه تراجع بعد أن أحدث ذلك ضجة اهتزت لها مدينة فاس بأكملها،

324 - حول هذا الموضوع أنظر على الخصوص محمد المهنائي، التنظيم العسكري وعلاقته بالمجتمع في العصر الإسماعيلي: قصة مدينة تارودانت مع سيدي محمد العالم.

325 - حول الأهمية العلمية التي أصبحت لفاس في العهد العلوي الأول أنظر محمد المهنائي: من الشاعر الجيد؟ جريدة العلم، الأحد 2 أبريل 1992. قصة مدينة تارودانت... الحسن اليوسي...

326 - في موضوع تطور المواجهة بين المخزن الإسماعيلي وعلماء فاس. أنظر محمد المهنائي: الفقيه الرسمي ومازق الشورى في دولة الإسلام من خلال فتوى ابن ناجي في قضية تمليك الحراطين. العلم الثقافي.

327 - أنظر مقالاتنا السابقة وكذلك محمد الفاسي، رسائل إسماعيلية، عدد خاص لمجلة تطوان، عام 1962.

328 - محمد بن الطيب القادري: نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر الرباط، 1986، ج III ص. 79.

329 - حول أهمية الشيخ محمد بن عبد القادر الفاسي في مواجهة علماء فاس لسياسة تمليك الحراطين، أنظر محمد المهنائي، الفقيه الرسمي...

وأرسل صحبة القائد عبد الله الروسي بكتاب يوبخ فيه "الفقهاء على عدم موافقتهم لتملك الأحرار، وجمع أعيان المدينة وقرنت عليهم براوية القلقليين. وفي ثاني جمادى الثانية من العام وصلت لفاس براءة من عند السلطان أيضا يمدح العامة وذم الفقهاء" (330) ويبدو أن محمد بن قاسم عليلش القيم على جمع الحراطين والعبيد قد زار فاس عام 1114 هـ/ 1702 م "ولم يكتب له أحد من الفقهاء ما أراد في شأن الحراطين" (331). واستمر الوضع بين أخذ ورد، إلى أن وصلت عملية جمع الحراطين والعبيد إلى نهايتها، ولم يبق خارج عملية الجمع بالمغرب الشمالي إلا حراطين فاس. وهو ما حتم ضرورة المرور إلى التصفية النهائية لهذه المسألة، خصوصا بعد أن شعرت السلطة المركزية باهتزاز هيبتها أمام صمود علماء فاس وعدم مطواعيتهم. وعليه، فقد انتقل المولى إسماعيل من مرحلة الرسائل والتهديد والوعد والوعيد إلى العمل على تجنيد حراطين فاس وإسكات كل صوت يخالف ذلك.

وحول الأحداث التي مرت منها هذه المواجهة، أو فرض سياسة الأمر الواقع، نتوفر على نص فريد من نوعه، ذلك أن صاحبه كان من بين المشاركين في هذه المسألة والمعانين لأحداثها، فدون في تقييده هذا التفاصيل اليومية للتطورات التي مرت منها أحداث المواجهة (332) وتوجد هذه المقيدة ضمن مجموع مخطوط بالخزانة الحسنية (333). وتتكون من خمس صفحات، وهي لمؤلف مجهول. وبدون شك إن موضوع المقيدة كان يفرض التقية ويمنع صاحبها من ذكر اسمه غير أن ابن الحاج في رياض ورده سيعرض أثناء حديثه عن أزمة علماء فاس في قضية الحراطين لإحدى المقيدات وينسبها لمحمد بن عبد السلام بناني، ويبدو التشابه الكبير بين المقيدين أسلوبا ومضمونا، وهو ما يدفع إلى الاعتقاد بأنهما لشخص واحد (334). ومن خلال استقراء بسيط يتضح أن محمد بن عبد السلام بناني كان وقتئذ شابا مجدا في طلب العلم، وهو ما خول له مشاركة شيوخه في

330- محمد بن الطيب القادري، نشر المثالي ج III، ص 116 - 117.

331 - نفسه، ص. 145.

332- فالمؤلف يعرض الأحداث بضمير المتكلم فيقول مثلا: فرجعنا إلى فاس وبتنا بها تلك الليلة وبصبيحتها قدم التاودي ابن القاضي رسولا من عند السلطان إلى الفقهاء أن أقنموا فإن السلطان عزم على إهلاك عليلش... فقمنا إلى مكناص مرة ثانية وكان ذلك يوم الإثنين فأقمنا بها الثلاثاء ويوم الأربعاء.

333- مخطوط مجموع الخزانة الحسنية الرباط، رقم 12593.

334- ابن الحاج محمد بن حمدون السلمي: رياض الورد إلى ما انتهى إليه هذا الجوهر الفرد مخطوط خ.ع الرباط رقم 1113 ص 169 - 170 نتقدم بكامل الشكر إلى الطالب الباحث محمد الحيمر الذي زودنا بهذا النص. وأوحي لنا بهذه المقارنة.

مسألة الحراطين، وكان العربي بردلة ومحمد بن عبد القادر الفاسي من بين هؤلاء، وتوفي صاحبنا بعد أن أصبح عالما نحرياً ومرجعاً نوازلياً ومؤلفاً لكتب كثيرة، وذلك عام 1163 هـ/1749م (335).

وبالرغم من صغر حجم مقيدة صاحبنا المجهول (أو بناني)، فإنها عامرة بالأحداث، وتتميز بالدقة والجرأة، حيث تسرد الوقائع اليومية، وتحكي تفاصيل اللحظات الأخيرة من عمر الصراع المرير الذي خاضه علماء فاس في مسألة تملك الحراطين. وهو ما جعل من هذه المقيدة وثيقة أصلية تصحح مجموعة من المغالطات والتعميمات التي حامت حول هذه المسألة في الكتابات العامة.

انتقال عبد الله الروسي إلى فاس وبداية المواجهة.

بعد أن فشلت كل المحاولات لإقناع علماء فاس على الموافقة على تملك حراطين حاضرتهم، قرر المولى إسماعيل أن يبدل أسلوب الإقناع، ولاسيما بعد أن شهدت نفس العملية تعثراً بالعاصمة الإسماعيلية خلال سنة 1120 هـ/1708م (336) واتضح أن لعلماء فاس يدا في ذلك، حيث كان هؤلاء على اتصال مع حراطين المغرب، كما سنبين لاحقاً.

وبأمر من المولى إسماعيل قدم إلى فاس لجمع حراطينها وحرز كمياتهم وإقامة الشهود بذلك عليهم قائده ووزيره عبد الله الروسي في أول ربيع الأول عام موفي عشرين (337) وبهذا بدأت عملية جمع وتقييد الحراطين بفاس رغم أنف العلماء والفقهاء، وبالإكراه في غالب الأحيان، حيث قام عبد الله الروسي بجمع الفقهاء والعدول وأنزلهم بدار قرب داره بالمعادي وفي هذه المدة كلها وهم مقيمون في تقييد الحراطين فيأتي الرجل منهم قهراً ويسأل عن حرطانيته فلا يزال يرغم ويقهر حتى يقر ثم يسأل عن سيده فلا يزال كذلك (...). وربما ضرب بالعصا حتى يستخرج من كنانته فلان فيقول هو سيدي ثم يسأل عن

³³⁵ - محمد بن الطيب القادري نشر المثاني ج VI ص: 80 - 81.

³³⁶ - جاء عند القادري في الموضوع: وفيه (1120) شرع السلطان مولانا إسماعيل في تملك حراطين مكناسة الزيتون أمنها الله ثم عفا عنهم نشر المثاني ج III ص: 205.

³³⁷ - المجهول (بناني) ص: ضمن مجموع جاء في ترجمة عبد الله الروسي بعد أن تكلم القادري عن بداية خدمته للمولى إسماعيل وتعيين والده على فاس وتقريبه منه لخدمته. قال: "واستقر يسكن بمكناسة واستناب بفاس والده حمدون ثم ابنه عبد الخالق ثم حفيده أبا علي، وفوض له السلطان في ولاية فاس وجبايتها وتنفيذ مصالحها... فأدركته الوفاة فيما أظن في آخر العشرة الثالثة بعد مائة وألف (1130) نشر المثاني ج I ص: 238 - 240.

زوجته ووصفها وأولاده وبناته ويقيد ذلك كله بالتقايد حتى استخرج من ذلك المؤد العديدة وكلهم على هذا الوصف⁽³³⁸⁾.

وأمام مقاومة علماء فاس وحرطينها لعملية الجمع، ازداد تشدد عبد الله الروسي، واستعمل جميع الوسائل لانتزاع إقرار الحرطين برقيتهم وإشهاد العلماء بذلك، وكانت الوثائق المسجلة عن كل حرطاني شمله الجمع تقول "بأن الوصيف فلان بن فلان المذكور شاهدا له وأشهد على نفسه بذلك طوعاً"⁽³³⁹⁾. وبعد تسجيل اسم الحرطاني يأتي دور قاضي المدينة⁽³⁴⁰⁾ والشهود والفقهاء الذين يوقعون على هذه الوثيقة، ويشهدون على أن الإقرار كان طوعاً. وقد حاول القائد عبد الله الروسي أن يرغم كل العلماء على وضع علاماتهم على هذه الدواوين حتى لا يبقى هنالك استثناء، وذلك بالمبالغة في الإكراه ومن اختفى منهم أو تأخر يبحث عنه في منزله ويدخل فيه عليه وعلى حريمه ومنهم من هدد عليه بقطع الرأس حتى علم علامته⁽³⁴¹⁾. وإذا كان هذا الأسلوب قد أعطى أكله مع أغلبية العلماء، فإنه لم يزد بعضهم إلا صموداً، إذ امتنع عن الامتثال لأوامر القائد عبد الله الروسي ثلاثة شيوخ، وهم العلامة العالم سيدي العربي بردلة⁽³⁴²⁾ والعلامة العارف بالله تعالى شيخنا عبد السلام جسوس رضي الله عنه وأرضاه⁽³⁴³⁾ والعلامة الفهامة سيدي محمد ميارة⁽³⁴⁴⁾ فأخذوا على ذلك وسجنوا وهددوا وما زادهم ذلك إلا أباء،⁽³⁴⁵⁾ ويبدو أن امتناع هؤلاء ألهب حماس الناس وزكى سخطهم على ممارسات القائد،⁽³⁴⁶⁾ وتشكلت بفاس معارضة

338 - المجهول (بناني) ص: 1 ضمن مجموع

339 - نفسه

340 - كان قاضي فاس آنذاك هو محمد بن علي بن منصور تولى قضاء فاس سنة 1119 هـ 1707 م، بعد عزل القاضي العربي بردلة، وبقي يزاول هذا الوظيفة إلى أن عزل عنه في مستهل ذي القعدة عام 1122 هـ 1710 م وتولاه مكانه علي بن عبد الواحد بوغان، أنظر القادري النقاط الدرر، تحقيق هاشم العلوي، دار الأفاق الجديدة، بيروت، 1981 ج II ص. 198 - 307.

341 - المجهول (بناني) ص: 1 ضمن مجموع

342 - للإطلاع على أهمية هذا العالم في وقته أنظر محمد المهناوي، الفقيه الرسمي وأزمة الشورى ب دولة الإسلام. 343 - للمزيد من التفاصيل عن حياة هذا الشيخ الجليل أنظر محمد المهناوي، من الشارع الجديد؟ عبد الله بطران... علماء فاس والمولى اسماعيل ومشكلة حرطين فاس. ترجمة عبد الله بن الأمين، محمد المهناوي مجلة أبحاث، عدد 26 ربيع 1991 ص: 71-83.

كانت أسرة عبد السلام جسوس تلك امتياز التوفير والإعفاء من كل الكلف المخزنية. سواء كانت ضرائب أو خدمة عسكرية. وربما كان ذلك بسبب انتصاب جسوس لتأسيس طريقة صوفية كما يشير إلى ذلك القادري في ترجمة هذا الشيخ (نشر ج. III ص. 207) وقد احتفظت أسرة جسوس بهذا الظهير الإسماعيلي المكتوب على ظهر جلد غزال إلى أن التهمته النيران بلحدي حوانيت قيسارية فاس أثناء الحريق الذي أتى على قسم كبير منها عام 1954. وذلك نقلاً عن رواية أحد حفدة عبد السلام جسوس.

344 - اشتهر الفقيه الجليل محمد ميارة باتساع مداركه ومعارفه، وكان موثقاً به في سائر أموره عند الخاصة والعامة. فكان لا يحدد عن الحق في شيء، معلوم ذلك منه، وكان صاحب سمع حسن وكذاه وفطنة تامة، وكان مهيباً محبباً للعلامة والخاصة، توفي رحمه الله في خامس عشر المحرم عام أربعة وأربعين ومائة وألف: القادري نشر المثاني، ج III، ص. 353-354.

345 - المجهول (بناني) ص: 1 ضمن مجموع

346 - جاء عند عبد القادري...وفي ثامن ربيع الأول من العام (1120) قدم على فاس القايد عبد الله الروسي من مكناسة الزيتون وحاز الفقهاء في تملك الحرطين ودون الدواوين وأنزل عليها أكثر الفقهاء وامتنع البعض من النزول عليها وبعد صلاة الجمعة الموالية له نادى أهل المسجد وطلبوا منه الشرع فلم يزل يضيق على من امتنع من النزول فلم ينفعه ذلك فبهم نشر المثاني، ج III ص. 205.

حقيقية لعملية تمليك الحراطين، كان يوطرها هؤلاء الشيوخ الثلاثة، حيث كتبوا فتاويهم المدعومة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقويل العلماء الداعية لتحريم ما يقوم به القائد عبد الله الروسي،⁽³⁴⁷⁾ وأشاعوها في الناس وأذاعوها وبعثوا بها إلى سائر الآفاق،⁽³⁴⁸⁾ ونظرا للفشل الذريع الذي لقيه القائد، وخوفا من الزيادة في تعقيد المسألة، قرر القائد المذكور أن يرحل عن فاس، فأمر "الشهود والفقهاء كلهم أن يخرجوا لمكناسة للقاء السلطان فخرجوا عن آخرهم،⁽³⁴⁹⁾ وبذلك دخلت هذه المسألة منعطفا جديدا.

نقل المعارضين والمؤيدين إلى مكناس

لا ندري الأسباب التي جعلت محمد بن قاسم عليلش⁽³⁵⁰⁾ لا يحضر إلى فاس صحبة عبد الله الروسي، غير أننا نعلم أنه كان أول المستقبلين للوافدين من فاس. وعندما استلم ديوان الحراطين الذي هياه الروسي، أبدى عدم رضاه وأرجع الخلل الذي به على تقصير القائد في مهامه. وحسب مؤلفنا المجهول، كان عليلش، يهدف من ذلك إلى ابتزاز عبد الله الروسي الذي كان في عنق الزجاجة، ولم يأخذ منه الديوان "حتى رشاه القائد على قبول ذلك بمائتين وخمسين من الغرامة المخزنية التي قبضها المذكور من فاس في ليلة واحدة فسكت حينئذ⁽³⁵¹⁾ وفي انتظار الأمر السلطاني، نظم الحراطون أنفسهم، وحاولوا بكل ما في وسعهم العمل على إبلاغ صوتههم إلى المولى إسماعيل. فقد كانوا يجتمعون في كل يوم "بالجامع الأعظم بمكناسة ويصيحون نحن بالله وبالشرع ويضج المسجد كله ويجولون في الأسواق ويذهبون إلى سيدي محرز وسيدي أبي زكري لعلمهم يصلون إلى السلطان ينادون بذلك أمامه يمنعون من ذلك⁽³⁵²⁾ ويبدو أن حركتهم الاحتجاجية هاته قد

347 - ابن الحاج محمد السلمي رياض الورد ، ص. 169 - 170.

348 - المجهول (بناني) ، ص. 3 ضمن مجموع.

349 - نفسه ، ص. 1

350 - كان محمد بن قاسم عليلش هو المكلف المفوض من قبل السلطان في جمع الحراطين والعبيد، وقد اصطدم سابقا بعلماء فاس، فقام هؤلاء بالظعن في مصداقية عمل هذا الوكيل مما دفع بهذا الأخير إلى جمع الكثير من التوقيعات شملت العديد من العلماء والعدول. يؤكد أصحابها على كفاءة عليلش واستحقاقه لما رشح له من المناصب العليا والوظائف السنية أنظر:

ابن زيدان عبد الرحمان، إتحاق أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس الرباط 1932 ج IV ، ص. 84 - 85.

القادري نشر المثنائي، ج IV، ص. 219-221.

محمد المهنائي الفقيه الرسمي وأزمة الشورى بدولة الإسلام.

351 - المجهول (بناني) ، صص. 1-2

352 - نفسه ، ص. 2

لقيت مساندة من قبل حراطين مكناس وعبيدها⁽³⁵³⁾ وهو ما أوجب المبادرة إلى إيجاد حل سريع، ولو كان أنيا، فجاء إلى هؤلاء المتظاهرين "من قال أن السلطان نصره الله عفا عن الحراطين وسمح فيهم ولم يبق له في ذلك، فارجعوا أيها الفقهاء والشهود إلى فاس بسلام"⁽³⁵⁴⁾.

يتضح من سياق الأحداث أن السلطة المركزية قد اكتشفت خطأ النقل الجماعي لعلماء فاس وحراطينها إلى مكناس، ولذلك قررت أن تحل المسألة مع كل طرف على حدة، وفضلت أن تبدأ بالطرف الذي كانت تحمله مسؤولية ما وقع، إذ يرجع العلماء والفقهاء وقضاء ليلتهم الأولى بفاس "وبصبيحتها قدم التاودي ابن القاضي رسول من عند السلطان إلى الفقهاء أن أقدموا فإن السلطان عزم على إهلاك عيلش الذي على يده تقوم هذه الغوغاء في كل مرة"⁽³⁵⁵⁾. واثر عودة هؤلاء إلى مكناس ستتدخل معارضة علماء فاس لسياسة تمليك الحراطين فصلها الأخير. وعن كيفية استقبال السلطان لشيوخ المعارضة، يحكي المجهول المعانين للأحداث: فقدمنا إلى مكناسة مرة ثانية وكان ذلك يوم الاثنين فأقمنا بها الثلاثاء ويوم الأربعاء عشية النهار خرج السلطان وآلاف جنوده بين يديه مصطفىين وأمر بأن يأتي إليه الفقهاء الثلاثة فأقبلوا عليه ومعهم الفقيه سيدي محمد بن شيخنا المرحوم سيدي محمد بن الحاج"⁽³⁵⁶⁾. وأثناء هذا اللقاء الذي قصد منه المولى إسماعيل توبيخ العلماء وتأييدهم على موقفهم التحريضي للحراطين، وحملهم على إلزام حدودهم، حدث ما لم يكن في الحسبان. فقد كان السلطان يوبخ كل عالم على إنفراد، ويوجه له اللوم والمعني بالأمر صامت مطأطي الرأس⁽³⁵⁷⁾ إلى أن وصل دور جسوس، فلما "التفت إلى شيخنا سيدي عبد السلام جسوس بادره الشيخ بالكلام قائلا أنا بالله وبالشرع معك أمولاي أن بالله وبالشرع معك وجعل يكرر ذلك عليه، فقال له السلطان تكلم مع عيلش فقال لا كلام لنا

353 - جاء في النشر، وذهب بمن امتنع ومن وافق بالذواوين فنادوا أيضا بمسجد مكناسة الزيتون طالبيين أمر الشريعة، وتبعهم أهل مكناسة وغيرهم من العبيد الذين هنالك نشر المثاني، ج III، ص 205.

354 - المجهول (بناني) ص: 2 ضمن مجموع

355 - نفسه

356 - نفسه لا ندري لماذا انضاف إلى الشيوخ الثلاثة الفقيه محمد بن محمد بن الحاج، ربما أن تضامنا مع هؤلاء، أو أنه تراجع عن توقيعه. على أية حال يظهر أنه انضم متأخرا إلى صفوف المناهضين لتمليك الحراطين ذلك ما يؤكد التقييد الذي جاء في رياض الورد: إن علماء فاس وكافة شهودها لما ذهبوا إلى مكناسة لحضرة السلطان أبي النصر مولانا إسماعيل في شأن قضية جمع الحراطين بفاس وحرز كمياتهم تكلم مع السلطان منهم في تحريك ذلك أربعة القاضي أبو المحاسن العربي بردلة والشيخ الشهيد أبو محمد عبد السلام بن حمون جسوس والشيخ أبو عبد الله محمد بن الشيخ أحمد بن الحاج والشيخ سيدي محمد ميارة حفيظ شارح التحفة. ابن الحاج محمد السلمي، رياض الورد ص: 169 - 170.

357 - يلاحظ من السرد أن تعامل المولى إسماعيل مع محمد بن الحاج كان يختلف عن تعامله مع الشيخين، العربي بردلة ومحمد ميارة، في حين كان الصمت القاسم المشترك بين العلماء الثلاثة. وقد جاءت رواية المجهول مطابقة تماما لما جاء في رياض الورد. يقول النص: وأمر بأن يأتي إليه الفقهاء الثلاثة فأقبلوا عليه ومعهم الفقيه سيدي محمد بن شيخنا المرحوم سيدي محمد بن الحاج فأمر السلطان بإزالة رأسه لحينه ثم أمر بيه في رأسه ثم أمر بكل عينيه ثم عفا الله عنه التفت إلى سيدي العربي وقال له ألت طلبينا وقد قتلتم مولاي الحفيد حتى أفحمه ثم التفت أيضا إلى سيدي محمد ميارة فبعينه حتى أقحمه المجهول (بناني) ص: 2 ابن الحاج السلمي، رياض الورد ص: 170.

معه ولا بد يا مولانا هل تستمع منا شرع الله" (358) وقد حاول جسوس أن يقرأ على مسامع المولى إسماعيل ما كتبه صحبة العربي بردلة ومحمد ميارة في قضية الحراطين رغم أن السلطان أبدى عدم رغبته في الإنصات لذلك، وهو ما جعل جسوس يخرج عن حدود اللياقة (359)، بل تجاوز ذلك فأمسك السلطان "من ثوبه فلم يستطع أن يقوم، ولا أن ينتقل إذا أراد الانتقال والقيام حتى سمع البراءة كلها ثم قال له السلطان كيف تتجاسر علي في مجلس ملكي فقام الكتاب الحاضرون والقائد وقال له نصر ك الله زاغ بالمال الذي له فدفعه السلطان إلى القائد المذكور وقال له اقبض منه عشرين قنطارا فأخذه القائد إلى داره وكبله بالحديد (360) وعليه، فقد انحرفت المسألة عن إطارها الحقيقي، وتدخلت بها مجموعة من القضايا.

- من مسألة الحراطين إلى مسألة الشيخ عبد السلام جسوس

بعد إلقاء القبض على الشيخ عبد السلام جسوس تم إرساله إلى سجن فاس صحبة ولد أخيه شيخ الركب النبوي محمد بن علي جسوس (361) وذلك في انتظار قدوم القائد الذي قام بمصادرة جميع ما تملكه عائلة عبد السلام جسوس، من كتب جمة وغيرها من أنواع العروض وقناطير من الزيت والحريز مما ورثه من والده ومما كان له من قبل أو لأحد أولاده التجار فحازوا ذلك كله وبيع بالسوق ورهنوا الأصول المستخلقة عن والده وقوموها بنحو خمسة قناطير... ورموها على تجار الحضرة الفاسية (362) وبما أن أملاك الشيخ جسوس لم تكن كافية، فقد التجأ القائد الروسي إلى وسيلة يمكن بواسطتها من جمع المال الضروري، والمبالغة في أن الوقت في تأديب السجين وإلحاق الإهانة به، فأمر أصحابه أن يذهبوا بالشيخ إلى رأس الشراطين يعرضوه هناك فأقاموا النهار كله والمؤمنون يمرون عليه وبين يديه مخزونون أسفون وكل من قدر منهم على عطاء أعطاه الفوائد وكان ذلك يوم الخميس وفي يوم السبت ذهبوا به إلى مدرسة الشراطين يتكفون به الناس وكل المؤمنين بأسفون عليه ويكون ذكورا وإنثاء أحرارا وعبيدا (...) ثم يوم الأحد 5 جمادى الأولى ذهبوا به إلى رأس التياليين والسكاكين وأقعدوه هنالك يتكفون به الناس... (363)

358 - المجهول (بناني)، ص. 2.

359 - يحكي المجهول أن السلطان كان يود من جسوس أن يمكنه من الرسالة التي كتبها صحبة زملائه. في حين ألح جسوس على قراءتها. ويتضح ذلك من رد المولى إسماعيل على طلب جسوس منه سماع كلام الشرع: فقال له السلطان هل كتبت ذلك لنا فانخطر الشيخ من البراء التي كانوا كتبوها بفاس... فجعل القارئ يقرأها على السلطان وهو ينفر من ذلك المجهول (بناني) ص 2.

360 - نفسه صص. 2-3.

361 - تولى على جسوس إمارة ركب الحج عام 1114 هـ/1702م، وتوفي عام 1150 هـ/1737 م أنظر القادري بشر المثنائي، ج III ص. 143 - 403.

362 - المجهول (بناني) ص. 3.

363 - نفسه

وبالموازاة مع هذا أمر القائد بضرورة مساهمة رفيقيه في المعارضة، وكذا كل العدول والطلبة قصد بلوغ القدر المطلوب. وهكذا بعث "إلى الشيخين سيدي العربي وسيدي محمد ميارة وأمرهما أن يعطيا من أموالهما ما يستعان به في تكميل العشرين قنطارا المأمور بها على الشيخ جسوس كما أمر جميع العدول والطلبة بمثل ذلك فسلط عليهم الخدام فضيقوا عليهم حتى أخذوا من أحدهم العشرة مثاقيل ومن الآخر عشرين وأقل وأكثر" (364) وتجاوز القائد الروسي هذا الحد، ربما بفعل ضعف المال المجموع وعدم كفايته أو رغبة في الإمعان أكثر في معاقبة العربي بردلة، فبعث في آخر يوم من جمادى الأولى (1120 هـ) "إلى سيدي العربي... عن ماله كله ويخرج عن ما يملك... فمكنه من داره التي بالمعادي التي كان استحدث بناءها فقومها أرباب البصر في الحين ورمى قيمتها على بعض التجار... ثم قدم دار سيدي العربي في هذا اليوم ورقى ثمنها على الطلبة وشدد في ذلك عليهم وضيق بهم" (365) وبعد حوالي شهر ونصف من المصادرة والاكتتاب وصل المبلغ الذي تم جمعه إلى ثلاثة أرباع القدر المطلوب دفعه، وبأمل استكمالها عند عودة الحاج علي شقيق عبد السلام جسوس، أطلق سراح هذا الأخير (366).

لقد أبان الشوط الأول من محنة الفقيه جسوس عن تعاطف ساكنة فاس معه، خصوصا مع مبالغة القائد في إهانته وتعذيبه (367)، حتى حكى "أن من قدم بين يديه هنالك نصراني فأشفق من ذلك، وسمع بأنه عالم من علماء المسلمين يمتحن في ذات الله وعلى كلمة حق فذهب وجاء بدينار ذهب ودرهم وقال لا أملك فوق هذه إلا نفقة يومي وأعطى ذلك وانصرف.. " (368) ومن خلال متابعتنا للأحداث كما يسردها صاحبنا المجهول، نلاحظ اندماج أهل فاس قاطبة في قضية جسوس، فكانوا يتابعونها عن كتب، ويعيشون تفاصيلها، فبعد أن أشرقت عملية الطواف بالشيخ جسوس في أسواق المدينة على الانتهاء، ظن الناس "أنهم ذهبوا به ليقتلوه فخرج الصبيان بالوواحهم من المكاتب يطوفون مع ساداتنا الشرفاء على أولياء الله ينادون جاه النبي قدمنا يا مولاي ارحمنا واجتمع معهم لذلك خلق كثير

364 - نفسه

365 - نفسه، ص 4.

366 - جاء عند المجهول ص 4 وفي أواسط الشهر جمع المال كله ورغم أن قدره خمسة عشرة قنطارا وأحضر حمله الشيخ.. بالخمس القناطير الباقية إلى قوم الشيخ سيدي الحاج علي شقيق السيد عبد السلام من المشرق ثم حمل المال المجموع وذهب به إلى السلطان وبقي بعد ذلك نحو خمسة أيام فأمر بتسريح الشيخ فسرّح من السجن.

367 - جاء في يومية المجهول "ثم بعد نحو عشرين يوما استدعى القائد الشيخ إليه فقام إليه ولطمه لطمتين بيده وجعل يضربه بالعصا كثيرا وبلغ في سبه وكذا جعل يضربه معه ولده القائد أبو علي واتخوه بذلك كثيرا ص 3 وفي صورة أخرى يقول مجهولنا وفي عشية النهار مثل الشيخ سيدي عبد السلام بين يديه وجعل يسبه بأقبح السب... ويلطمه بيده ويجديه ويدفعه حتى سقط بين يديه مفتشيا عليه ثم أفاق فأمر به إلى سجن الحبس مع الناس عموما فكشطت ثيابه.. ص 4.

368 - المجهول (بناني)، ص 3.

فأسف الناس من ذلك كثيرا واشتد بكاؤهم وحنينهم والناس كلهم ينادون يا رفيقا يا ربنا..»⁽³⁶⁹⁾.

ونظرا للمشاكل التي ترتبت عن محاولة تمليك حراطين فاس، والجو المحموم الذي كان يسود المدينة بسبب أزمة جسوس، فقد حاول المولى إسماعيل أن يجند حراطين فاس بطريقة مخالفة لما كانت عليه سابقا، غايتها إنهاء المسألة بالتّي هي أحسن، فقام القائد عبد الله الروسي بجمع (جملة من الحراطين وذهب بهم إلى مولانا السلطان حتى أقامهم بين يديه فكلّمهم قائلا لهم أني أريد قربكم إلي ووصلتكم معي الآن لابد أن تأتوني وتبنوا دياركم معي وبجوارتي فجاؤوا، ثم جاء القائد أيضا في شوال من أواسطه وقدم بأرباب البصر ديارهم وأصولهم وجعل آلاف الآن يكلف من صب الله عليه أن يشتري منها ما يرميه عليه فقبض لذلك كثيرا من الشرفاء نجانا الله بمنه أمين»⁽³⁷⁰⁾ وإذا كانت هذه السياسة قد وضعت نصب أعينها البرهنة عمليا على إقبال حراطين فاس على التجنيد طوعية، فإنها أكدت بالمقابل على القدر التاريخي لمدينة فاس، فقد أدت الثمن عن حراطينها سواء جمعوا بالإكراه أو بغيره.

إننا لا نعرف بدقة العوامل والظروف التي أدت إلى قتل عبد السلام جسوس بعد أن أخلي سبيله بنحو تسعة أشهر. فهل أطلق سراحه بشروط، منها على الخصوص الالتزام بعدم الخوض في مسألة الحراطين؟ أم أن الأمر لم تعد له أية علاقة بالحراطين؟ إن الذي نعلمه هو أن الحاج علي جسوس حاول عند عودته من الحج إصلاح ذات البين، فتكللت مساعيه بالنجاح، حيث بعث المولى إسماعيل على شيخنا سيدي عبد السلام وتسامحا وأعطاه بعض الدراهم فلم يأت بها ولا قبضها⁽³⁷¹⁾ وبدون مقدمات، وبطريقة مفاجئة ينتقل مجهولنا للحديث عن يوم الاثنين من ربيع النبوي لعام 1121 هـ/ 1709م، فبينما شيخنا سيدي عبد السلام جالس في مجلس العلم لتدريس سيدي البخاري إذ جاءه رسول القائد يكلمه فذهب إليه فأمر بسجنه بسجن الحبس وبقي الناس متحيرين إلى الغد وهو يوم الثلاثاء صباحا أخرج رضي الله عنه إلى باب السجن وقتل هناك رحمة الله عليه وترك هنالك إلى الليل ودفن ثم ظهر الكذب في موته فأخفوه عن الأعين بباب السجن حتى أتى الليل يوم من الآخر يوم أشهد في نحو ثلث الليل أخرج لباب السجن بمحضر جماعة من أعيان الوقت والأشراف الطاهريين وخنق هناك حتى مات رحمة الله عليه»⁽³⁷²⁾ وشاعت في الناس

369 - نفسه ، ص. 4.

370 - نفسه ، صص. 4-5.

371 - نفسه ، ص. 5.

372 - نفسه

البطالة التي كتبها قبيل موته، والتي أرجع فيها سبب محنته إلى موقفه من جمع الحراطين وتمليكهم⁽³⁷³⁾. وإثر استشهاد جسوس وصمت العربي بردلة⁽³⁷⁴⁾ انتهى آخر فصل في معارضة علماء فاس لسياسة تمليك الحراطين. وإذا كان سكوت العلماء لا يعني انتهاء هذه المسألة، فإنها على أي حال أصبحت جد محدودة، ولم تعد بالحجم والخطورة التي كانت عليهما⁽³⁷⁵⁾، غير أن المشاكل التي ترتبت عن هذه المسألة بقيت عالقة، وتركت بصماتها واضحة على علاقة مدينة فاس بمخزن المولى إسماعيل، وخاصة بعائلة الروسي، فبمجرد موت المولى إسماعيل عام 1139 هـ/1727 م بل في صبيحة اليوم الذي ورد فيه الخبر على فاس بموت السلطان قتل أهل فاس قائده بها، الرئيس أبا علي بن عبد الخالق بن عبد الله الروسي عامل السلطان على فاس⁽³⁷⁶⁾.

لقد أثارت مواقف أهل فاس تجاه السياسة المتبعة من قبل السلطة المركزية والمحلية، ردود فعل مختلفة، وفسرت بأسباب متباينة، إذ رأى مولاي عبد الله ابن المولى إسماعيل أن سبب طغيان أهل فاس يرجع لثراءهم، ولهذا أوصى عامله على فاس عام 1143 هـ/1730 م، بما يلي: اقبض منهم المال وألقه في وادي أبي الخرايب⁽³⁷⁷⁾، ولا تتركه عندهم، فما أطعاهم إلا المال، حتى استخفوا بالملكة⁽³⁷⁸⁾ أما الزياني فيرى أن سبب ولع سكان فاس بالخلاف على الملوك في كل عصر ومع كل دولة، وعدم انزجارهم بما يقع لهم من المصائب يعود إلى قساوة قلوب ناسها وتكبرهم، وذلك "لحروشة مائها وفساد هوائها"⁽³⁷⁹⁾.

بالتأكيد إن هذه التفاسير غير مقنعة، ولكن الزياني كان على صواب عندما أشار إلى أن ما وقع لأهل فاس من الفضائح والعقوبات "لم يقع لأحد من أهل حواضر المشرق والمغرب، وما استراحوا إلا في دولة سيدي محمد بن عبد الله"⁽³⁸⁰⁾ فإذا ظهر السبب بطل العجب.

373 - أنظر في هذا الموضوع: محمد المهناري، من الشاعر الجيد؟ الشوري في دولة الإسلام. عزيز عبد الله بطران: علماء فاس والمولى إسماعيل ومشكلة الحراطين.

374 - ينعت عبد السلام جسوس في الكتابات المغربية بالشهيد، في حين يلقب العربي بردلة بأخر قضاة العدل. أنظر: محمد المختار السوسي، المعسول، ج 17، ص. 143 - 144.

375 - الإشارة الوحيدة التي نصادفها بنشر المثاني حول مسألة حراطين فاس بعد موت جسوس، جاء فيها وفي ثاني عشر من جمادى الثانية من عام خمسة وعشرين ومائة ألف، ورد على فاس زمام من مكناش بأحد وعشرين رجلا من أهل فاس بأنهم حراطين، وفي عاشر ذي الحجة العام قدم القائد حمدون الروسي من مكناش لبيع دور الحراطين بفاس والأمر لله، القادري نشر المثاني ج. III - ص. 215.

376 - نفسه، ص. 291.

377 - وادي أبي الخرايب، هو الوادي الحار الذي يفصل مدينة فاس إلى عدوتين: القرويين، والأندلس، وهو الذي يطلق عليه بالمصادر الوسيطية عند دخوله إلى فاس من جهة فاس الجديد. اسم "وادي الجواهر".

378 - أبو القاسم الزياني، البستان الطريف في دولة أولاد مولاي الشريف، تحقيق، رشيد ازراوية، نشر مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، 1992، ص. 248.

379 - نفسه، ص. 50.

380 - نفسه، ص. 53.

